أبو الطيب المتنبى

بين الغرور والطموح والحزن

يروى فى الأساطير أن ملكاً من ملوك الجان كان يمقت الغرور ويغالى فى كراهة المزهوين بأنفسهم الشامخين بأنوفهم ، وأراد أن يعبر عن هذه الكراهة فى شكل يسترعى الأنظار ، ويملأ الأسماع ، ويبقى ذكره على الأيام ، فأعلن أنه لا يزوج ابنته الحسناء إلا من الرجل الذى يثبت أنه أقل الناس نصيباً من الغرور ، وأبعدهم عن الزهو والخيلاء ، وأن هذا الرجل – إذا وجد – سيكون وارث عرشه المكين وملكه الواسع وجلّ ماله ، ولتحقيق هذه الغاية نصب مرآة كبيرة على الطريق الرئيسى المفضى إلى قصره ، وأخذ يراقب السابلة ، فكان كل من يمر بالطريق يتجه ببصره إلى المرآة ليطالع فيها صورته المحبوبة ، ويصلح من هندامه ، وبخاصة الذين كانوا يقدمون لخطوبة كريمته الحسناء ، فقد كانوا يحرصون على أن يكون لمنظرهم الرائع وزيهم الفخم الأثر المرغوب والوقع الحسن الذى يعين على قبول الخطوبة ويذلل العقبات ، وطال الزمن ، ومل الملك الجليل المراقبة والتنظر ، ودب إليه اليأس ، وإذا برجل عادى المنظر يمر إلى جانب المرآة مستغرقاً فى التفكير فلا يلقى عليها نظرة عجلى ، ولا يعيرها لفتة عابرة ، وقد عرته الدهشة واستولى عليه الذهول حينما حمل إلى الملك للمثول بين يديه فاثراً منتصراً . وكان هذا الرجل السعيد شاعراً ينحت القوافى ويقرض الشعر ، واتفق فى أثناء مروره بالمرآة أنه كان ينظم إحدى القصائد ويروض

قوافيها فألهاه ذلك عن النظر إلى المرآة وأظفره بيد ابنة الملك ، ووراثة الملك والسلطان والجاه والمال .

وواضح أن هذا الشاعر المجدود لم يبصر المرآة ، ولو كان رآها لما مر بها غير حافل ولا مكترث ، ولكان له أمامها وقفة يتأمل فيها طلعته وقوامه ، ويسوى من بزته وهندامه . على أن هذه الأسطورة تنطوى على سخرية القدر القاسية بهذا الملك الهمام ، لأن هذا الشاعر السعيد لو كان لحظ المرآة وأعرض عنها لكان ذلك أدل على غروره وافتتانه بنفسه لإشتغاله بتأمل نفسه فى مرآته الداخلية الخفية ، وهو لون من الغرور أقوى مراساً وأبعد أعراقاً من غرور المزهوين الكلفين بالنظر إلى ملامحهم الخارجية البارزة فى صقال المرآة . والواقع أن أى إنسان يتاح له مخالطة الشعراء وسائر أصحاب القرائح الفنية يدهشه إدلالهم بمواهبهم وفرط تدلههم بأنفسهم وخيلاؤهم التى قد يعجز عن احتمالها أشد الناس إعجاباً بهم وأعظمهم تقديراً لفنهم ؛ ويعجب لإشفاقهم من النقد الرفيق والملاحظة اليسيرة . وحذار أن يخدع الإنسان فى ادعائهم الترحيب بالنقد وتقبل الملاحظة ، فليس هذا النوع من الصبر والإحتمال فى طوقهم ، وليس الغرور بوجه عام مقصوراً على أصحاب الأمزجة الفنية فإنه من الخلائق الشائعة بين الناس ، فكل منا يخال نفسه محور الوجود ، وغرض الحياة ، ويظن أنه أنفذ الناس بصيرة ، وأصحهم إدراكاً ، وأن العالم لا يستغنى عنه ، ولا يصلح بدونه . وهذا الغرور الملازم للطبيعة الإنسانية هو الذى يهون علينا احتمال الحياة فى أقسى الظروف وأسوأ الحالات ، وهو الذى يشد من عزمنا ويعيننا على لقاء عثرات الحظ ونوبات التخاذل واليأس .

وكل منا يحاول فى حياته اليومية المألوفة أن يتجمل للناس ، ويصانعهم ويتظاهر لهم بالتواضع ، وخفض الجناح ، وتوطئة الأكناف ، فإذا ما أجنه

الليل أو حفت به الوحدة خلا إلى أنانيته ودخل محرابه المقدس الذى لا يسمح لأحد بأن يطأ أرضه أو يدنس حرمته ، وناجى غروره وقدم القرابين إلى كبريائه المتوارية وزهوه المستور ، وأكثرنا يخلع رداء الغرور فى العالم الخارجى ويتناسى الكبرياء ويمثل التواضع ويحاول أن يكون خليقاً بقول أبى تمام فى رثاء صاحبه الطوسى :

فتى كان عذب الروح لاعن غضاضة ولكن كبراً أن يقال به كبر

فالزهو والغرور وتوهم العظمة والمغالاة بقيمة الإنسان داء يغشى الناس جميعاً ويلفهم فى غياهبه ، ولا معدى لهم عنه ، ولا خلاص لهم منه ، ورجال الفنون – سواء المبرزون منهم وغير المبرزين – أكثر استهدافاً لهذا الداء المتفشى وأشد قابلية لإيواء جراثيمه وإنمائها . وهم مطبوعون على الصراحة وحب الحرية والرغبة فى التعبير عن النفس والتحدث عن ميولها واتجاهاتها فى غير مواربة ولا جمجمة ، ولا قدرة لهم على التحفظ والمداراة والنفاق الذى تألفه الناس ليستروا هواجسهم وهواتف نفوسهم . ولذا يبدو غرورهم واضحاً ، وتتجلى أنانيتهم سافرة . وهم يتجرعون من جراء ذلك الغصص ويلقون المقاومة والعداء . وفرط ثقة الفنان بنفسه وإسرافه فى حبها وكثرة تعلقه بأهدابها يقابلها من ناحية أخرى رغبة منافسيه وأنداده وحساده الجنونية الطاغية فى انتقاص قيمته ، وإنكار فضله . وتشويه محاسنه ، وإذاعة مثالبه ، والحرص على النيل منه وهدم بنائه . ومن دأب الإنسان أنه كلما غالى بعرفان نفسه ، وارتقى بها رفيع الذرى ، هانت عليه أقدار الناس وتضاءلوا فى عينه . والفنان الذى ينتشى من خمر حبه لنفسه وهوس إعجابه بفنه قد يصل إلى حالة كتلك الحالة التى وصفها دِعْبِل الخزاعى فى قوله :

إنى لأفتح عينى حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحداً

فالناس حوله كثيرون ولكنه يشرف عليهم من أبراجه العالية فهو لا يكاد يراهم ، وإذا شغل نفسه ودقق فى النظر إليهم رآهم كالحشرات التى تزحف على أديم الأرض !

وفى اعتقادى أن شاعرنا الخالد العظيم أبا الطيب المتنبى كان من أشد شعراء العالم غروراً بنفسه وثقة بها ، وأكثرهم إدلالاً بقدرته . وقد ذهبت به الخيلاء أبعد المذاهب حتى أوفى على الغاية فى الكبرياء والتنفج ، ولازمه ذلك فى شتى أدوار حياته من إبان نشأته وشبابه حتى قبيل مصرعه ومماته .

فهو فى صباه ومطالع شبابه يقول :

أى محل أرتقى أى عظيم أتقى
وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق
محتقر فى همتى كشعرة فى مفرقى

وفرط الغرور — مهما كانت مواهب الإنسان من الأشياء السمجة المكروهة وإن كانت لا تخلو فى بعض الأحيان من عنصر الفكاهة وإثارة الضحك . وقد يحتمل الناس غرور المغتر بنفسه لتوقد ذكائه وسعة اطلاعه ولكنهم لا يستطيعون أن يحتملوه طويلاً . ولذا قد يكون للمغرور أتباع وأنصار يحملون عرشه ، ولكنه لا يكون له أصدقاء يبادلونه العطف . والظاهر أن بعض أصحاب المتنبى نعى عليه غروره وإمعانه فى التيه فاعتذر عن ذلك بقوله يسوغ غروره :

إن أكن معجباً فعجب عجيب لم يجد فوق نفسه من مزيد

وأكاد ألمح أن أصحابه يئسوا بعد ذلك منه وتركوه يحتمل مغبة إسرافه فى الغرور والتعالى ، وقد أخذت أبا العلاء المعرى نوبة من نوبات الادعاء العريض

والغرور الثقيل ، فنظم تلك اللامية المعروفة التى يقول فى مطلعها :

ألا فى سبيل المجد ما أنا فاعل عفاف وإقدام وحزم ونائل

ولكن هذا النوع من الفخر الأجوف كان لا يلائم مزاج أبى العلاء ولا يتفق مع نظرته إلى الطبيعة الإنسانية وفلسفة حياته . ولذا سرعان ما انتقل إلى النقيض فكان يكثر من لوم نفسه وتعنيفها ، وانتقاص قدرها ومن أمثال ذلك قوله :

دعيت أبا العلاء وذاك مَينٌ ولكن الصحيح أبو النزول

وقوله – وهو فى غاية التواضع :

ولوكنت ملقى بظهر الطريق لم يلتقط مثلى اللاقط

ولقد كان أبو العلاء من كبار شعراء العالم الساخرين ، ولذا فطن لما فى شعر الفخر والحماسة من ادعاء صارخ ، وعنترية مضحكة ، ونفخة كاذبة . وضعف ملكة الفكاهة فى المتنبى هو الذى أذهله عن إدراك سخف كثرة امتداحه لنفسه ومغالاته بقدرته . والذى يقلب صفحات ديوان المتنبى يخيل إليه أن هذا الرجل الجاد الفاضل لم يضحك سوى مرة واحدة فى حياته الطويلة أو المتوسطة ، وذلك حين مر فى شبابه برجلين قد قتلا جرذاً وأبرزاه يعجبان الناس من كبره . فأضحك هذا المنظر شاعرنا الكبير وأثار حاسة الفكاهة الراقدة فى نفسه ، فنظم هذه الأبيات :

لقد أصبح الجرذ المستغير أسير المنايا صريع العطب
رماه الكنانى والعامرى وتلاه للوجه فعل العرب
كلا الرجلين أتلى قتله فأيكما غل حر السلب ؟
وأيكما كان من خلفه ؟ فإن به عضة فى الذنب

وهجاؤه لكافور تندر فيه الفكاهة المستطرفة ، وأكثره إقذاع وسباب يدل على جفوة الطبع وشدة الحقد واتقاد الغضب والغيظ . ولقد قال فيه :

فإن كنت لا خيراً أفدت فإننى أفدت بلحظى مشفريك الملاهيا

ولكن الحقيقة أنه بلحظه مشفرى كافور لم يفد الملاهى وإنما أضاف الكثير إلى أدب القذف والسباب والشتم والإسفاف . ومعروف أن كافوراً مل كبرياء المتنبى وتعاليه ، وضاق بغروره وإدلاله ، كما ضاق به قبله سيف الدولة على إعجابه بالمتنبى وعظيم تقديره لأدبه . والعجيب أن المتنبى كان فى بعض مدحه لكافور الذى ينطوى على شىء من السخرية الخفية ألطف روحاً وأخف ظلاً ، فمن منا لا يقف عند هذا البيت ويعجب وربما يرتسم على وجهه الإبتسام :

تفضح الشمس كلما ذرت الشمس بشمس منيرة سوداء

أليست هذه الشمس المنيرة برغم مايعلوها من السواد - والتى هى كافور الإخشيدى - وهى مع ذلك تخجل الشمس وتفضحها وتزرى بها وتكسفها وتغمرها برغم سوادها الذى يشرق منه الضوء النافذ ، أليست هى من الأشياء العجيبة التى لم يكن لها نظير إلا فى مخيلة المتنبى ؟

والظاهر أن المتنبى بعد أن نظم هذا البيت ولحظ ما فيه من الإسراف فى المغالطة وطلب المحال وما يشى به من الملق والمداهنة أدركته كبرياؤه وعاوده غروره فختم القصيدة بقوله :

وفؤادى من «الملوك» وإن كا ن لسانى يرى من الشعراء

فهو يعزى نفسه بأن فؤاده من الملوك ولكن لسانه المسكين الولوع بالمبالغة والمغالطة والمداهنة من الشعراء ! ولعل مدحه لكافور المشوب بالسخرية الخفية كان أوضح فى القصيدة النونية التى يقول فيها مخاطباً كافوراً :

ومالك تعنى بالأسنة والقنـــا وجدك طعان بغـــير سنان

أرد لى جميلاً جدت أولم تجد به فإنك ما أحببت فى أتانى

والضربات الصادعة والألفاظ الجارحة التى كالها المتنبى لكافور لم تضحكنا منه ، وإنما جعلتنا نعتب على المتنبى لإشهاره هذا السلاح الرهيب سلاح الهجاء فى غير لباقة مستحبة ، ولا فكاهة مستعذبة ، وإنما فى شىء كثير من القحة والسماجة وثقل الدم وجفوة الروح . وأفظع من هجائه لكافور تلك القصيدة المائية التى مطلعها :

ما أنصف القوم ضبه وأمه الطرطبه

فقد فاق فيها المتنبى نفسه سوء أدب وقلة حياء وانحدر فيها إلى الحضيض الأوهد ومهما قرأ الإنسان عن تناقض أخلاق العبقريين وتفاوت طباعهم وآثارهم فإنه لا يسعه إلا التعجب من مصرع هذا العقل الجبار فى تلك القصيدة المشئومة وتهافت هذه العبقرية الراجحة ، وكيف أسف هذا النسر المحلق فى أعالى الفضاء على الجيف والأقذار ، وتورط فى الحزون والأوعار ، وقد كانت هذه القصيدة على سخافتها وركاكتها سبب قتله وقتل ابنه وغلمانه وذهاب ماله ودمه هدراً .

وفى بعض الأحيان كان يتلاقى فى نفسه الغرور والطموح ، أو يستحيل الغرور طموحاً وينقلب طلباً لعظيمات الأمور وحلماً بالمجد ، كما فى قوله :

تحقر عندى همتى كل مطلب ويقصر فى عينى المدى المتطاول
ومن يبغ ما أبغى من المجد والعلا تساو المحـــايا عنده والمقاتل

ويزين له هذا الغرور والولع بالمجد أنه سيصنع الصنائع ويفعل الأفاعيل ويقتل الناس والملوك ويثأر لنفسه ويسترد حقه المغصوب فيقول :

ميعاد كل رقيق الشفرتين غداً ومن عصى من ملوك العرب والعجم
فإن أجابوا فما قصدى بها لهم وإن تولوا فما أرضى بها بهم

وقد يصل به التفاخر والتمجد والتظاهر بالقوة إلى حد السخف ، تأمل قوله :

يحاذرنى حتفى فإنى حتفه وتنكزنى الأفعى فيقتلها سمى
طوال الرديني‍ات يقصفها دمى وبيض السريحيات يقطعها لحمى

وغريب أمر هذا الرجل الذى يكون حتفاً لحتفه . والذى تنكزه الحية فلا يؤثر فيه سمها وإنما يقتل سمه الحية ! وولعه بالفخر هو الذى أغراه بادعاء هذه الحالة المضحكة . وقد يأخذ غروره وادعاؤه العظمة صورة التطلع إلى الإجرام وسفك الدماء ، كما فى قوله :

أفكر فى معاقرة المنايا وقود الخيل مشرفة الهوادى
زعيم للقنا الخطى عزمى بسفك دم الحواضر والبوادى

وفى سبيل ماذا يسفك دم الحواضر والبوادى ؟ فى سبيل طلب المعالى ، فصاحبنا إذاً يريد أن يكون من طراز أتيلا وجنكيز خان وتيمورلنك ، ونحمد الله لأن الأيام أخلفت ظنه ، ولم تحقق له أمنيته .

وباعد غروره ما بينه وبين الناس ، وأفسد علاقته بهم ، فصار يشعر بغربته وعزلته ، ويعزى نفسه بمثل قوله : «إن النفيس غريب حيثما كانا» . والاحتفاظ بالغرور ، والكلف الشديد بالنفس ، والتفكير الدائم فيها يثير فى النفس شعوراً آخر وهو الشعور بالإضطهاد والظلم والإعتقاد الراسخ بأن هناك من ليس لهم عمل فى الحياة والدنيا سوى أن يكيدوا لنا ، وينصبوا فى طريقنا الأشراك والفخاخ ، ويعملوا على هدم بنائنا والقضاء على حياتنا ، ومن ثم هذه الشكوى الدائمة فى شعر المتنبى من حسد الحاسدين وكيد الكائدين . ولذا أحب أن أعتذر لأبى الطيب عن شكى فى قوله :

أنام ملء عيونى عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

فالرجل الذى يكثر من ذكر حساده ومنافسيه لابد أنه كان كثير التفكير فيهم ، حريصاً على إغاظتهم ورد كيدهم . وقد وصف لنا إحداق الأعداء

به من كل جانب حتى آثر مجاورة الوحوش الضارية والأسود العادية فى قوله لما مر بالفراديس من أرض قنسرين وسمع زئير الأسد :

أجارك يا أسد الفراديس مكرم فتسكن نفسى أم مهان فسلم
ورائى وقدامى عداة كثيرة أحاذر من لص ومنك ومنهم
فهل لك فى حلفى على ما أريده فإنى بأسباب المعيشة أعلم
إذاً لأتاك الرزق من كل وجهة وأثريت مما تغنمنّ وأغنم

ولم يستطع المتنبى أن يواجه هذه الحقيقة ، وهى أن معظم من يكرهونه إنما كانوا يضمرون له البغضاء لإمعانه فى الكبرياء . ففى « الصبح المنبى » أن الصاحب بن عباد طمع فى زيارة المتنبى إياه بأصفهان وهو إذ ذاك شاب ولم يكن استوزر بعد ، فكتب يلاطفه فى استدعائه ويضمن له مشاطرته جميع ماله ، فلم يقم المتنبى له وزناً ولم يجبه عن كتابه ، ولم يكتف بذلك بل قال لأصحابه « إن عليماً معطاء بالرىّ يريد أن أزوره وأمدحه ولا سبيل إلى ذلك » فصيره الصاحب غرضاً يرشقه بسهامه ويتعقب سقطاته فى شعره وينعى عيبه سيئاته . وكان المتنبى يستطيع أن يعتذر عن الذهاب إلى هذا الشاب الطموح فى شىء من الرفق واللين ، ولكن كبرياء المتنبى تنأى به عن اتباع هذه السياسة ، وهو لا يلاين الناس ولا يحاسنهم إلا إذا كان مضطراً إلى ذلك ولم يجد عنه مندوحة ، فلما سجن لإتهامه بإدعاء النبوة وإحداث الشغب لم يجد مانعاً من أن يكتب إلى والى حمص من قصيدة ينفى بها عن نفسه التهمة قائلاً :

أمالك « رق » ومن شأنه هبات اللجين و « عتق العبيد »

وهذا هو حال أكثر التياهين المتكبرين . فإنهم لا يثبتون طويلاً لمنازلة النوائب ومقارعة الخطوب .

وقد كانت هذه العظمة المتوهمة التى نسجها المتنبى حول نفسه لوناً من ألوان

العوض عما أصابه فى طفولته وابتداء نشأته من الإهانات وأنواع الإساءة والتحقير بسبب فقره ويتمه وضعة أصله . ومعظم الذين عرفوا بالكبرياء والزهو استهدفوا فى حياتهم لامتحانات قاسية ونقدات مهينة جارحة . وقد لوحظ أن شدة شعور الإنسان بناحية خاصة من نواحى النقص تحدوه على ابتغاء المجد وطلب العظائم . و «أدلر» العالم النفسى المعروف يرد كل موهبة إنسانية سامية إلى الرغبة فى التعويض عن لون أصيل من ألوان النقص والعيب . وقد لا يصدق رأيه فى كل موقف ، ولا يفسر كل حالة من الحالات النفسية ، ولكن لا نزاع فى أن الشعور بناحية من نواحى النقص يحفز النفس إلى استدراك هذا العيب واستكمال ذلك النقص . وتوهم العظمة عريق فى نفوسنا ، فالطفل يتلهف على أن يكون ضخماً فارعاً . ويود أن ينمو ويكبر فى مثل غمضة العين ورجعة الطرف .

وطموح المتنبى المترامى الغلاب ، وحلمه بالمجد المؤثل والملك الشاسع ، واعتقاده بأن له حقاً سيطلبه بمشايخ «كأنهم من طول ما التثموا مرد» من أقوى بواعث هذه الشكوى المرة التى تطالعنا فى شعره والحزن الولاج الذى تنضح به قصائده . ومَن أبعد الأمل وأسرف فى الطمع كان خليقاً أن يعود بالحرمان ، ويبوء بالخسران . ولا عجب أن يكون المتنبى وهو أعظم شعراء العربية طموحاً ، وأضخمهم أملاً هو نفسه الذى يقول :

أذاقنى زمنى بلوى شرقت بها ... لو ذاقها لبكى ما عاش وانتحبا

ويتحدث عن الخطوب التى أنشبت فيه مخالبها فيقول :

أو حدننى ووجدن حزناً واحداً ... متناهياً فجعلنه لى صاحباً

ونصبننى غرض الرماة تصيبنى ... محن أحدَّ من السيوف مضارباً

أظمتنى الدنيا فلما جئتها ... مستسقياً مطرت علىَّ مصائباً

ولما نالته الحمى بمصر خاطبها يقول :

أبنت الدهر عندى كل بنت فأين وصلت أنت من الزحام
جرحت مجرّحاً لم يبق فيه مكان للسيوف ولا السهام

وفى رثائه المؤثر البديع لأم سيف الدولة يقول عن نفسه :

رمانى الدهر بالأرزاء حتى فؤادى فى غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتنى سهام تكسرت النصال على النصال

فطموح المتنبى هو باعث حزنه ، وكبرياؤه هى سبب كثرة خصومه وأعدائه ، وإفراطه فى طلب الدنيا هو سبب ما يروى عنه من الشح والبخل . ولقد أبعد المتنبى الهدف ، وغالى فى الطلب ، فلم يلق سوى الحزن وخيبة الأمل . والدرس الذى نعلمه من حياته هو أن نعتدل ونقتصد فى طلباتنا ونبغى الأهداف المعقولة . وقد كان المتنبى بعيداً عن الزهد والقناعة والترفع عن المطامع فظل فى حياته محزوناً شقياً . وكان كلما أخفق فى نيل بغيته ، وأحس بعجزه ، لاذ بكبريائه وتدرع بغروره ، وملأ ماضغيه بالافتخار المسرف مرة ، وبالشكوى المرة مرة أخرى . ولم يستطع طوال حياته أن يوازن بين أمله وقدرته ، وظل طفلاً يطمع فى الملك ويحلم بالنفوذ والسلطان وضرب أعناق الملوك قبل السوقة . وكان يسمع إطراء المعجبين بأدبه المأخوذين بشعره فيزداد ثقة بنفسه وإعجاباً بمواهبه إلى حد أن يرى نفسه « عجيباً فى عيون العجائب » ويمكن أن نعزو إلى تأثير أدب المتنبى الإكثار من شعر الفخر الأجوف الذى ملأ دواوين الشعراء بعد عهد المتنبى ، ومن أمثال ذلك تلك القصيدة الخرافية التى نظمها ابن سناء الملك ومطلعها :

سواى يهاب الموت أو يرهب الردى وغيرى يهوى أن يعيش مخلداً

ولولا تأثير المتنبى السيئ – فى هذه الناحية – لكان شاعر متزن مثل البارودى أوفر عقلاً وأصح مزاجاً من أن يرسل مثل هذا البيت العنترى السخيف :

إذا استل منا سيد غرب سيفه تفزعت الأفلاك والتفت الدهر